

## سلطة المعرفة الاستشراقية ودلالات الخطاب الغربي

د. سامي محمود ابراهيم  
رئيس قسم الفلسفة  
كلية الاداب - جامعة الموصل  
العراق

### الملخص

يمكن القول بأن تمفصلات السلطة والمعرفة كانت تابعة لحقب تاريخية أو عصور تحدها ممارساتها أو معطياتها وفقاً لرؤية الغالب للمغلوب أو المركز أو الاطراف لتنتقل تشابكات السلطة والمعرفة في ملامح خفية متنقلة من بداياتها ، بمعرفة الآخر (الشرق) لتحقيق الذات المالك لمفاتيح سلطة معرفة الآخر لتتحول إلى معرفة متجسدة فيها السلطة بصورة واضحة من خلال الاستشراق ودوره في الممارسة الاستعمارية في عصر نابليون لتلتي اهداف المعرفة الاستشراقية وأهداف السياسيين في بوتقة واحدة هي خدمة سلطة الاستعمار في ترويضه لشعوب المنطقة ، أما الاستشراق بعد عصر نابليون الذي التقت فيه العلمية والمنهجية والدقة مع السياسة لقلب الحقائق في خدمة المستعمر منتهية إلى عصر الاستشراق الامبريالي كما سماه ادوارد سعيد بعد الحرب العالمية الثانية متجذراً في السياسية الأمريكية أو عصر الامركة ممتزجة المعرفة مع الاقتصاد والسياسة والثقافة بشكل كثيف لا يمكن من خلال فرز المعرفة الاستشراقية (الدراسات أو مركز الدراسات للشرق بأنواعها) عن الاهداف السياسية والاقتصادية لتمتزوج ريحة البترول مع الديمقراطية مع عصر نهاية الثقافات والتي أراها نهاية الاستشراق لاننا في عصر ثقافة أمريكية واحدة حاولت مسح الشرقي ولاسيما العربي الإسلامي خاصة للاسف الشديد وان كان هناك بقعة أمل وضوء يتمسك به أي مسلم مخلص لدينه ووطنه في بؤر المقاومة في فلسطين ولبنان والعراق وافغانستان والصومال للقضاء على ثقافة الهيمنة .

## إرادة السلطة والمعرفة

إن إرادة السلطة والمعرفة تكون نمطاً من المعرفة حول الاستشراق لا من منظور اقتصادي أو سياسي أو ثقافي لكن من منظور بنية التفكير الاستشراقي الذي حاول أن يحلل ويستكشف ويعيد إنتاج الشرق منطلقاً من نقاط متنازعة القوة تتشابك بسياق خطي يتجلى في نظرة المستشرق للآخر . إن كلمة سلطة قد تسبب كثيراً من سوء الفهم ، سوء فهم يتناول هوية السلطة وشكلها و وحدتها لذلك لا اعني بالسلطة ذاك المصطلح الذي يتداول في المعاجم أو في دوائر التعريفات المستخدمة كتعريف السلطة Authority (( في اللغة هي التسلط والتحكم ، وقد تكون السلطة سياسية أو أدبية أو علمية أو دينية الخ ... ، وقد تكون سلطة شرعية كما يعني للبعض أن يعرفها ، وقد تكون سلطة غير شرعية ، بمعنى أن المجتمع لم يخولها من آلت إليه ، فتكون تسلط يقوم على القسر والإكراه (( (1)

ولقد ميزت أدبيات وفلسفات السياسة بين السلطة الشرعية التي تؤول إلى صاحبها بحكم الشرع والسلطة الواقعية التي تكون لصاحبها في الواقع بحكم الواقعية التي تقوم على اعتراف سلطة آخرين عليهم ، بحكم واقع ان هؤلاء الآخرين اعرف من غيرهم بما يحتاجه هؤلاء البعض أو أنهم الأحكم أو الأقدر تحت مبدأ الأصلح في الواقع هم الأصلح شرعاً (2) . والتي تظهر كمجموعة من المؤسسات والأجهزة التي تضمن خضوع المواطنين في إطار دولة ما في نمط من الخضوع الذي يتخذ شكل قاعدة متشكل في جهة الهيمنة التي يمارسها عنصر أو مجموعة على عنصر آخر أو مجموعة أخرى تخترق مفاعيله الجسم الاجتماعي عبر انحرافات في شكل سيادة الدولة أو القانون الموحد لهيمنة ما ، لذلك تمثل هذه التجليات بالأحرى اشكال السلطة النهائية لذلك يجب وقبل كلا شيء أن تفهم السلطة على أنها تعدد موازين القوى المحاثية للمجال الذي تمارس فيه ، والمكونة لتنظيمها ، واللعبة التي تحول هذه الموازين وتعززها وتقلبها عن طريق مجابهات ونزاعات متواصلة ، وكذلك تعني الدعم الذي تلقاه موازين متمحورة بالتفاوتات أو التناقضات التي تعزل بعضها عن البعض الآخر وأخيراً تعني كلمة سلطة الاستراتيجية التي بواسطتها تفعل موازين القوى فعلها والتي تتجسد خطتها العامة أو تبلورها المؤسسي في أجهزة الدولة ، وصياغة القانون والهيئات الاجتماعية ، لذلك فإن شرط إمكان وجود السلطة يمكن في هذا الأساس في عدم الثبات لموازين القوى التي تخلق باستمرار من خلال تفاوتها فإن السلطة حاضرة في كل مكان متجمعة في وحدة لا تقهر منتجة ذاتها في كل نقطة أو في كل علاقة مع نقطة أخرى السلطة بشكل عام تنصف بالاستمرارية والتكرار وجمود واعداد إنتاج ذاتي ليست سوى النتيجة العامة التي تبرز انطلاقا من جميع هذه العناصر المتحركة والمتسلسلة الذي يركز في كل عنصر من هذه العناصر محاولة لتثبيتها فالسلطة ليست مؤسسة وليست بنية وليست قدرة معينة يتمتع بها البعض، إنها الاسم الذي يطبق على وضع استراتيجي معقد في مجتمع معين (3)

ولا ينبغي للمفهوم السلطة المذكور أنفا ان يتحرك وسط تشابكات معقدة عشوائية عمياء متمظهرة بأشكال وصور وانعكاسات سطحية وآلية متصلة بالخطاب الذي يحدث فيه تمفصل للسلطة والمعرفة (\*) لهذا السبب ينبغي أن نتصور الخطاب كمجموعة أجزاء غير متصلة وظيفتها التكتيكية غير متماثلة ولا ثابتة بصورة أدق يجب أن لا نتخيل ان الخطاب مقسماً بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض والمسيطر عليه بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة متضمنة أشياء مبنية وأشياء مخفية وتعبيرات مطلوبة وممنوعة وما يفرضه في متغيرات ونتائج مختلفة باختلاف الإنسان الذي يتكلم وموقعه

(1) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، دكتور عبد المنعم الغني ، ص 415 .

(2) ينظر المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، 415-416 .

(3) ينظر إرادة المعرفة ، ميشيل فوكو ، ترجمة الصفي وجورج ابي صالح ، ص 101-102 .

(\*) لعل هناك في أدبيات وفلسفات السياسة والمعرفة والفكر تعريفات للمعرفة إذ تعرف المعرفة بأنها الإدراك المطلق تصورات كان أو تصديقات لذا فرقوا بين المعرفة والعلم ، فالمعرفة تقال للإدراك البسيط ، أما العلم هو المعرفة المركب المتعدد المتجلي في الإدراك الكلي مفهوما كان أم حكمة لذا استعملت المعرفة في التصورات والعلم في التصديقات لذلك انقسمت المعرفة إلى أنواع منذ العصور القديمة فمنها المعرفة الباطنية والمعرفة الحدسية والمعرفة الحضورية والمعرفة العلمية والتي هي أعلى درجات المعرفة لأنها المعرفة المنطبقة على الواقع وهي تصورات للواقع ونظريات تربط الفكر بالواقع بواسطة العقل وهناك معرفة اشتهرت عند الفلاسفة كالمعرفة العيانية والمعرفة الفطرية ومعرفة كشفية ومعرفة مكتسبة ، ينظر المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، ص 814-817 .

السلطوي والإطار المؤسسي الذي يكون فيه وما ينطوي من تبديلات وانزياحات وإعادة استعمال لصيغ ممتاثلة من أجل أهداف متناقضة لذلك يجب أن نسلم بوجود لعبة معقدة وغير مستقرة بأن الخطاب في آن واحد أداة في يد السلطة ونتيجة لممارستها وقد يكون عائقا مصطدما به ونقطة مقاومة وانطلاقاً لاستراتيجيات متناقضة ، الخطاب ينقل السلطة ونتيجتها يقويها لكنه يفجرها ليجعلها هزيلة ويسمح بلغانها لذا يجب استجواب الخطابات على مستويين مستوى انتاجيتها التكنيكية ( ما هي النتائج السلطوية والمعرفية المتبادلة التي تؤمنها ) ، ثم مستوى انتماؤها الاستراتيجي ، أي ظروف أو أي علاقة قوة جعلت استعمال هذا الخطاب ضرورياً في هذه المرحلة أو من تلك المجاهبات المختلفة التي تحصل<sup>(1)</sup>.

لذلك كانت قراءتنا بالمعنى الواسع والعميق للخطاب الاستشراقي وتشكلاته في السلطة والمعرفة قائمة على تحليل الأنظمة الداخلية للخطاب والفكر الاستشراقي وكيفية تشكله وكيفية آلية وتقنية العمل من داخله جامعاً بين القراءة الاستنتاجية من داخل النصوص الاستشراقية ومن خارجه متتبعا لمسار تطور الفكر المتسم بالدوافع الخفية المحركة له من خلال السياقات المختلفة الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والثقافية والسياسية المتمحورة حول بؤرة وجهة نظر المستشرق للشرق المركزة في بنية ما يرى وما يعبر به ، التشكيلات الخطابية والتشكيلات غير الخطابية أشكال التعبير وأشكال المضمون<sup>(2)</sup>.

#### الجنود التاريخية لفكر الاستشراقي ( الوعي واللاوعي )

كشفاً لآلية الفاعلية الاستشراقية بوصفها نتاجاً لضرب من التفكير الفلسفي يوجب أن نتقصى علاقة الغرب بالشرق (الأخر) عبر التاريخ في لمحة سريعة تمهد التضاريس الوعرة للاغتراب من البنية الفكرية المتجزئة في اللاوعي للفكر الاستشراقي عبر التاريخ والموجهات التي أصبحت أداة ترفد المستشرق بأراء حول الشرق مما أدى إلى إعادة إنتاج الشرق حسب رؤية المستشرق وليس حسب رؤية الشرق الحقيقية<sup>(3)</sup>. ((فإلى ذلك ينصرف اهتمامنا بالفقرات الآتية :

#### 1- التمرکز العرقي / الثقافي : ثنائية الإغريق / البرابرة

يتعلق الأمر بالتقسيم اليوناني للعالم إلى (( إغريق )) و ((برابرة)) أو بعبارة أخرى إلى ((أحرار بالطبيعة)) و ((عبيد بالطبيعة))<sup>(4)</sup> وهو تقسيم ظل يمارس دوره الفعال بصورة أو بأخرى في ثنايا التفكير الغربي لتدل عليه دونما لبس علاقة الغرب بالآخرين وان كانت تجليات هذا التقسيم تأخذ مظاهر متعددة حسب الحاجات والظروف التاريخية والتي تعود آثار هذا التقسيم ولا سيما في كتاب أرسطو الذي قسم العالم إلى عبيد بالطبيعة وأحرار بالطبيعة أو المتمدن أو الهمجي أو المتوحش<sup>(5)</sup> وكلها تنبع عن فكر أو أنانية تتهم الآخر بالهمجية أو التوحش لأننا عندما نتهم الآخر بالهمجية فإنه نوعاً من حب الذات إذ لو كان الآخر همجي فأنتي الذي اعرف الآخر أصبح مركز مقابل للهمجي<sup>(\*)</sup> لأنني متحضر وهذا ما فعله أرسطو<sup>(6)</sup> ، ومهما تنوعت الثنائيات التي شكلها الغرب ( اليونان القديم) من عبيد وأحرار وبربر وإغريق ومتحضرين ومتخلفين ومهما تعددت الأوصاف فإن جوهر الفكرة الواحدة هو ان الغرب مركز والآخرين محيط أو أطراف والتي ظلت في مسيرة الفكر الغربي مرتبطة بهذا الوصف إذ يعلق كافين رايلي على قضية التمرکز العرقي الغربي فيقول كان اليونان في واقع الحال خليط من جماعات مختلفة متفرقة عن هذه الأجناس في الشرق الأوسط وآسيا والبحر الأبيض المتوسط ( يساوي الآسيويين + الأفارقة + القوقاز + الأوربيين) ويعزو أحياناً ازدهار الخيالي للثقافة اليونانية لهذا الخليط من الشعوب الذي

(1) ينظر إرادة المعرفة ، مصدر سابق ، ص 108-110 .

(2) ينظر ، المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو ، جيل دلز ، ترجمة سالم يفوت ، ص 57-76 .

(3) ينظر الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء ، ادوارد سعيد ، ترجمة كمال أبو ديب ، ص 128 ، وينظر المطابقة والاختلاف ، عبد الله إبراهيم ، ص 593 .

(4) ينظر المطابقة والاختلاف ، ص 594 .

(5) ينظر كتاب السياسة ، أرسطو ، ص 64 .

(\*) يقول ول ديورابن، الهمجي هو أيضا متمدن بمعنى هام معاني المدينة لأنه يعني ينقل تراث القبيلة إلى أبنائه ومآثرته القبيلة أو تراثها إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والفعلية والخلفية وعندما نطلق على غيرنا بالمتوحش أو الهمجية فأنتنا نعبر العرم لأنفسنا الأكثر ، ينظر قصة الحضارة ، ص 9-10 .

(6) ينظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ص 9-10 ، ج 1 .

يتسم بالحرية ثم يضيف بعد هذه الحقيقة وصفاً لليونانيين الذين كانوا يزورون الأجانب ولكنهم كانوا يزدرون كل الأجانب بالتساوي وبصرف النظر عن الجنس إذ كانوا يشعرون بأن الأجانب ينقصهم الاستقلال والحيوية اللذان تقدمهما الثقافة اليونانية مما أدى إلى إفراز اليونانيين الغربيين (إلى رؤية عنصرية تضع الصينيين واليابانيين والشرقيين في مستوى دون الإنسانية والتي أدت إلى العنصرية التي أصبحت أسلوب للحياة في القارة الأوربية وبالتالي كانت الموجهات الثقافية في المجتمع الغربي أنتج مجموعة من الشعراء والفلاسفة والدبلوماسيين والرؤساء المؤمنين بالعنصرية<sup>(1)</sup>. لذلك أصبح العرق والجنس محركاً للنظرات المتأصلة في فكر بعض الرؤساء الذين ظهروا في العصور اللاحقة كموسوليني وستالين وهتلر الذي دعى في كتابه إلى القومية بالنظر إليها بكونها قضية دم وليست لغة والتفكير بأن اللغة الألمانية تعطي الحق لأي شعب بأن يصبح جرمانياً هو جريمة في حق الأمة الألمانية التي تفردت بالموهبة الإبداعية لذلك كانت الدولة وسيلة لبلوغ هدف مهمته الحفاظ على العرق الأصلي الذي قدم للعام أسس الحضارة<sup>(2)</sup> (والروم) ولعل المناوشات أو الحروب في العصور القديمة ما بين اليونان أو الفرس من جهة والأقوام الأخرى من الجهة الأخرى لاسيما قصة هنبعل الذي جهز قواته من قرطاجنة لكي يحتل روما والذي عد بمثابة جيش بربري جاء ليعطي على مهد الحضارة والرقى لذلك تشكلت خطابات افززتها ممارسات على أرض الواقع مبطونة بسلطة متمركزة حول العقل المتفوق والذي يتمثل بالعقل الغربي لذا نرى في حلقات المصارعة الرومانية التي كانت تقام في الاحتفالات والمناسبات تصور المعارك التي كانت تدور ما بين الرومان وخصومهم من البربر لا سيما القضاء أو تصوير معركة القضاء على هنبعل وجيوشه قبل وصوله إلى روما<sup>(3)</sup>). إن هذه الثنائيات كانت موجهات شكلت كتلة متجانسة كونت أفضلية الذات جنساً وتفكيراً ودونية الآخر عرفاً وثقافة مستحضرة في جميع ثنايا التفكير الغربي وعلى مر العصور.

## 2- القرون الوسطى : ثنائية الايمان / الكفر

تشكلت بالية التفكير والتشكيل الخطابي المباشر وغير مباشر في ملامح ممارسات أكدتها حقبة تاريخية طويلة جذرت لثنائية الإيمان والكفر عندما تحولت إلى تصادم أو حروب سميت بالحروب الصليبية التي جاءت على أرضية مشكلة عمق لهذا التفكير عندما توسع الإسلام واصلاً إلى اسبانيا من جهة والصين من جهة أخرى مهدداً ذلك المركز الديني المتمثل بالمسيحية والبيت وجدت انها قد تحولت من مركز تعريف الأخر إلى مركز الدفاع عن الذات لذلك اتهم رجال الدين والكنيسة الإسلام بالكفر ان هذه الحروب قد شوهت الشرق العربي الإسلامي في المخيلة الغربية بسبب المواجهات الدامية ، ان الأذى لم يكن بسبب هذه الحروب فقط في الميدان لكنها تحولت إلى انصدام لأفكار وآراء مكونة دوافع جديدة للحكم على الأخر لذلك وصف في تلك المرحلة كل شيء يمت صلة للإسلام انه كافر<sup>(4)</sup> وهكذا أعلنت الحرب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر فباسم الله أراد البابا ((ايربان)) ان يخلص الكنيسة في الأزمة الداخلية التي تعصف بهم فوجه أنظار المؤمنين (الغرب المسيحي) إلى الشرق لمحاربة الكفار (المسلمين) وخطاب ((ايربان)) يكشف عن الأسباب الحقيقية الكامنة خلف الدعوة للحروب ، الاقتتال بين المؤمنين والحياة التعيسة وكثرة الشرور وتدمير الأجساد والأرواح ثم الفقر والبؤس وهناك أسباب كثيرة<sup>(5)</sup> جعلت من بعض النصوص المذكورة في سفر الرؤيا والذي احتوى في طياته على نصوص تحمل نوعاً من العنصرية ضد المناطق الشرقية لا سيما بابل ومن ضمن تلك النصوص ((ثم جاء واحد من دينونة العاهرة الكبرى الجالسة على المياه العديدة التي زنى بها ملوك الأرض وسكر سكان الأرض من خمر زناها وعلى جبهتها مكتوب لغز بابل العظمية أم العاهرات ونجاسات الأرض ورايت امرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء عيسى))<sup>(6)</sup> ويذكر محمد فاروق الزين نصوصاً كثيرة من كتاب سفر الرؤيا آخر كتب العهد الجديد توصف بوصف بابل وفلسطين وعودة اليهود إلى أرض الميعاد ذاكراً التراث الذي تركه يوحنا العارف للعراق بأنه وصم بابل العظيمة بأنها ((أم العاهرات ونجاسات الأرض)) فلا يقل غرابية وشذوذاً عن الكتب الدينية الأخرى لليهود

(1) ينظر : المطابقة والاختلاف، ص594-595 .

(2) ينظر : كفاصي ، أدولف هتلر ، ترجمة أمل رواش ، ص17-98 .

(3) المصدر نفسه، ص57.

(4) ينظر الغارة على العالم الإسلامي ، افتراءات المبشرين ، لوشاقلييه ، ص17-18 .

(5) المطابقة والاختلاف ، ص596-597 .

(6) المسيحية والإسلام والاستشراق ، محمد فاروق الزين ، ص251 .

والنصارى والعجيب أنهم منذ وصم يوحنا بابل بهذا اللقب أصبحت عندهم إلى الأبد رمزاً لكل رذيلة ولكل شيء بغض على وجه الأرض<sup>(1)</sup> وبذلك فإن الحروب الصليبية والنصوص الدينية غدت المخيلة الغربية بفاعلية التعصب العرقي والثقافي والديني ضد الشرق الإسلامي وقد تجلى ذلك في المرويات الشعبية الغربية التي جعلت من العربي / الإسلامي كائناً قاسياً منحرفاً بربرياً كافراً الخ .

### 3- العصر الحديث / ثنائية التحضر / التخلف

منذ عصر النهضة والذي يسمى أو أطلق عليه العصر الحديث تداخلت صورة الشرق العربي ((الإسلامي)) في مخيلة الغربي بصورة معقدة ومتشابكة متداخل فيها السياسي بالاقتصادي والثقافي بالديني والاستعماري بالحضاري وغدا الشرق محط أنظار الغرب من أفراد ودول والتي أخذت على عاتقها الاستكشافات للعالم الجديد وتمثلت صورة الشرق بأنه الغريب والمثير والمدهش وموطن السحر والخرافة ومكان ألف ليلة وليلة وعلاء الدين والمصباح السحري وقصص شهرزاد ممثلاً للشرق في نظر الغرب الإنسانية في طفولتها الأولى قبل إن تشب وتكبر وإن النزاع لا ينقطع ما بين ما كان في آسيا والشرق من حضارة قديمة ناضجة منهوكة ، وما قام في أوروبا الصناعية من حضارة فتيحة قوية متحركة لذلك كان كل شيء في الماضي يتغير ما عدا الشرق لذلك أصبح مشروعاً مباحاً للغرب لأنه يمثل منجم من الاستثمارات والطموحات<sup>(2)</sup> . والمغامرات وقد وصفوا الشرق بأنهم شعوب جاهلة ومتخلفة لا تعرف عن ما يحيط بها شيء إذ يذكر علي الوردي إن الشعب العراقي في بداية القرن المنصرم يتعجب ويندهش بما يأتي من التقدم الحضاري المادي من الغرب ويذكر إن احد المشايخ أو رجال الدين قد سأله احد الأشخاص بأن هناك في الغرب طائرات تطير مثل الطيور في الهواء وانها مصنوعة من خشب وحديد فقدم هذا الشيخ أو رجل الدين دليل في قوله إن هذا الذي يبدي مطرقة مصنوعة من خشب وحديد هل يمكنها إن تطير فقال له الجالسون لا فقال لا يوجد إذن طائرات ولكن أشار علي الوردي إلى إن رجل الدين قد رأى الطائرات في سماء العراق وهن يقصفن المدن العراقية<sup>(3)</sup> . وكما يقول هيكل (( إن الشرقيين لم يتوصلوا إلى معرفة إن الروح ، أداة الإنسان بما هو إنسان ، حرة ، ونظر إلى أنهم لم يعرفوا ذلك فأنهم لم يكونوا أحراراً ، وكل ما عرفوه هو إن شخصاً معيناً هو حر ولكن على هذا الاعتبار نفسه فأن حرية ذلك الشخص الواحد لم تكن سوى نزوة شخصية وشراسة أو انفصال متهور وحشي أو ترويض واعتدال للرغبات ، لا يون هو ذاته سوى عرض من أعراض الطبيعة ، أي مجرد نزوة كالثروة السابقة ، ومن ثم هذا الشخص الواحد ليس إلا طاغية لا إنساناً ، حراً ، ولم يظهر الوعي بالحرية لأول مرة إلا عند اليونان ، ومن ثم فقد كانوا أحراراً))<sup>(4)</sup> . ولعل هذه النظرة على الإنسان الشرقي تتماهى مع فلسفة جدلية المستويات جميعها مستبعداً ذكر الدين الإسلامي كأنه غير موجود<sup>(5)</sup> وبذلك ينفي هيكل عن الشرقيين كافة قدرتهم على إدراك ماهية الروم الحرة وهذا يلزم أنهم جاهلون وبعبارة أخرى أنهم يعيشون عبودية دائمة لأنهم لم يكونوا يوماً من الأيام أحرار وهنا الوعي الغربي يتحدر من أصول إغريقية ذكراً هيكل الشرق والشرقيين بنوع قاسية جاعلاً منهم حيوانات متوحشة لان الألفاظ التي استخدمها والأوصاف التي وصفهم بها مثل (نزوة ، شراسة ، انفعال متهور وحشي ، ترويض) وغيرها مما ورد في خطابه<sup>(6)</sup> ولم يقف الأمر عند حدود هيكل الذي وصف العرب بالمتوحشين فأن الفيلسوف نتشه قد اتهم الرسول الرسول محمد (ﷺ) قد انتفع من الرموز والمفاهيم والعقائد التي بها تم التسلط على الجماهير وتنظيم القطعان (تسيير الناس حشوداً كالحوانات) والتي أصبحت وسيلة للتسلط الكهنوتي وان كان استنشاء نتشه ضد بولس الكاهن متمماً إياه بالصفات ذاتها إلا أنها فكرة عامة متجذرة في الفكر الغربي<sup>(7)</sup> والذي لم يتردد وبالوسائل التعبير المختلفة واصفاً ذاته بأنه معيار للفضائل المختلفة ، العلمية ، الفلسفية وغيرها ، ومنطلقها أو ربما ، معقل التفكير الغربي ومركزه وصارت الرؤية الغربية للأخر هي المقياس ، وبدأ الجوهر الغربي يشع على العالم في

(1) ينظر المسيحية والإسلام والاستشراق ، مصدر سابق ن ص 268-269 .

(2) قصة الحضارة ، مصدر سابق ، ج 4 ، ص 288-289 .

(3) ينظر ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، - علي الوردي ، ص 3؟؟ .

(4) محاضرات في فلسفة التاريخ ، هيكل ن ترجمة عبد الفتاح أمام ، ص 85 .

(5) ينظر ، فلسفة هيكل ، ترجمة عبد الفتاح أمام ، ص 659 - 700 .

(6) ينظر المطابقة والاختلاف ، ص 598-599 .

(7) ينظر عدو المسيح ، نتشه ، ترجمة جورج ميخائيل ديب ، ص 119 .

صورة باهرة مبهرة ، الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود لذا كان كامل الكمال هو إن يكون الآخر غربيا ، بحيث الغرب ثمة منطق يقود الحياة إلى مصير خالد وبهذا يترتب شرون الآخر بمنظور غربي لا يريد إن يرى في موضوعه إلا ما يتقصد إن يراه هو فعلاً ويرغب فيه (1) . ومن خلال ما ذكرناه أنفاً تكونت عقلية الفرد الغربي ومن ضمنها عقلية المستشرق في الموروث الثقافي الذي تشكلت منه أوصافاً ساعدت على تكوين صورة جاهزة ومسبقة في المعرفة القبلية للمستشرق عند زيارته للشرق لأسقاطها كلية وهي البربري المتوحش العبد الكافر المتخلف الانفعالي .

### تشريح جسد الشرق منظومة تمفصلات السلطة والمعرفة في الخطاب الاستشراقي

جاء تعلم احد الكتاب الفرنسيين في القرن الثامن عشر القول (( إن الرحلات لتشكل أكثر المدارس تنقيفاً للإنسان فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطبائعهم والتحقيق في دياناتهم ونظم حكمهم غالباً ما تضع أمام الفرد مجالاً طيباً للمقارنة ، كما تساعده - ولا شك - على تقييم نظم وتقاليد بلده وموطنه)) (2) ، ولعلنا باستنتاجنا ضد النص والذي يوصف بأنه نصاً يوحي بأن الرحلات قائمة على المعرفة والبحث عنها من خلال عنصر المقارنة ما بين البلدان لتساعد على تحقيق التوازن النفسي والقيمي ما بين الشعوب لان عملية التقييم ما بين مجتمعين يساعد على تطور المجتمع الآخر لما يرفده من المعلومات ولكن لو بحثنا عن الملامح الخفية لهذا القول والتي جاءت من كاتباً فرنسي مستكشف للعالم لأرجعنا إلى الورا إلى بداية الرحلات إذ في بداية حركة الرحلات والبحرية خصوصاً لا سيما في عصر النهضة الذي دعمت الرحلات البرية أو البحرية فيه وبطرق مباشرة وغير مباشرة متمثلة بالرحلات مارو بولو وابن بطوطة التي كانت منطلقاً من الغرب صوب الشرق مكتشفة العالم القديم ومعيدة استكشافه باحثاً عن المعرفة التي اراد ان يكونا صورة معرفية عن الشرق من خلال العادات والتقاليد والأديان وطرق الحياة المختلفة بدافع سلطة المعرفة بالآخر ولم يكونوا قاصدين التقييم الشرقي من منظور التفوق أو عدم التفوق ولم يكونوا مدفعين بنية أو بقصد إظهار المعرفة المسبقة بهم لذا عندما اكتشف الرحالة بولو عالماً جديداً يختلف تمام الاختلاف عن العالم الذي عاش فيه في أوروبا ورأى أشياء لم يكن يحلم بها ، أو برؤيتها وشاهد حضارة كحضارة الأوربيين بل ربما تزيد عليها وشاهد في الصين شعباً يستعمل أوراق النقود وبنائيات رائعة واستخدام حروف الطباعة والموسيقى والغم وسماء الحجر الأسود فيحترق وتكون له نار عظيمة وعندما عاد إلى أوروبا ليدهض مقولة التفوق الحضاري الأوربي متكلماً عن رخاء بلاد الشرق البعيد عكس ما كان سائداً في الفكر الأوربي فاتهموه بالكذب لأن الخطاب السائد في وقتها إن ما هو غير أوربي لا بد إن يكون منحط وغير إنساني (3) ، إن الخطاب المتمفصل فيه المعرفة هو مركز وانه يمثل الحضارة وان ملامح السلطة الداعمة لهذا التفكير نابعة في اللاوعي الغربي بالعنصر الغربي المتفوق أو الرجل الأبيض لذلك الخطاب الذي ادحضه الرحالة بولو من خلال المعرفة الواقعية من خلال المشاهدة والملاحظة والمعاشية مكوناً معرفة حقيقية انصدمت بالخطاب الاقصائي الاكراهي مكوناً اثراً سلطوية متمركزة حول ذاتها في جهاز معرفي - سلطوي - يسمح بضبط ما يشكل اساس مقبول في منظومة ما سواء كانت هذه المنظومة والآليات السلطوية المحددة التي تغري بأنماط معينة من الخطابات والسلوكيات والتفكير محيلاً على تهميش الحقائق المنظورة لتكون معرفة قبليّة تضخم الذات (4) ، أما الرحلات التي انطلقت باحثاً عن العالم الجديد ومستكشفة جغرافية جديدة منطلقاً من مركز (أوروبا) إلى أصفاع العالم فلها كانت رحلة فاسكودا جاما وكولومبس وماجلان والتي انتهت باكتشاف الأرض الجديدة أمريكا قد أدخل أوروبا في حقبة جديدة هي تشريح جسد العالم الجديد متمظهرة بأشكال خطابية مرتبطة دائرياً بإنسان السلطة التي تنتجها وتدعمها وبالأثار التي تولدها والتي تسوسها وهي ما يدعى بنظام الحقيقة التي تحول الحقيقة ذاتها سلطة ذلك بأبعاد سلطة الحقيقة عن الجوهر لتخرج في دائرة أشكال الهيئة

(1) المطابقة والاختلاف ، مصدر سابق ، ص 599 .

(2) أدب الرحلات ، حسين محمد فهم ، ص 21 .

(3) ينظر أدب الرحلات ، ص 24 - 26 .

(4) ينظر التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو ، السيد ولد أباه ، ص 185 - 187 .

الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تشغل بداخلها<sup>(1)</sup>. وفي هذا الصدد يشير جوزين جرينبيرج إلى بعض التساؤلات عن ماهية الشعوب المستكشفة حديثاً لتلعب الالية السلطة والمعرفة لتشكل خطاب يجعل من الغرب المعرف اة المعيد إنتاج القارة الجديدة لذلك قال ( هل الشعوب التي لم تعرف من قبل والتي أمكن التعرف عليها عن طريق الاستكشاف تنتمي إلى نفس النوع الذي ينتمي إليه الإنسان الغربي ، ومن ثم تتحتم المحافظة على أرواحها ؟ ، وكانت الإجابة بالإيجاب هي الإجابة التقليدية ، ولكن كانت هناك مشكلة واحدة يجب التحقق منها اعتماداً على الجداول الجينالوجية في سفر التكوين، ونالت القبول تلك النظرية التي تقرر إن الهنود الأمريكيين هم بقايا القبائل العشر المفقودة في الوقت الذي كانت هناك نظريات أخرى أكثر جرأة ترى على أساس من التخمين إن في الإمكان وجود شعوب لا تنتمي إلى ادم والشعوب السابقة على ادم .

وقد ترتب على ذلك ظهور النظريات المتناقضة عن الأصل الإنساني الأحادي وعن الأصول الإنسانية المتعددة تلك النظريات التي استمرت بعد ذلك في صراع مع بعضها البعض عدة قرون )<sup>(2)</sup>.

كل ما سبق يصف الخطاب الغربي ودوره في تعريف الآخر وما يهمننا هو استكشاف الغرب للشرق ولاسيما الاستشراق والاستشراق بتجديد دقيق (( ميدان من مبادئ الدراسة المتفهمة ، وفي الغرب المسيحي يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فينا الكنسي عام 1312 م بتأسيس عدد من كراسي الاستاذية في العربية واليونانية والعبرية ، والسريانية في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وافينون وسلاماتكا))<sup>(3)</sup> ، واغن كان لا يوجد اتفاق بين الباحثين على فترة معينة لبدايته فمنهم من ارجع تاريخ الاستشراق إلى القرون الميلادية الأولى ، فيما ذهب العقيلي للقول انه ظهر عند الرهبان الذين قصدوا الاندلس أبان مجدها طلباً للعلم واشتهر من هؤلاء الراهب الفرنسي جريبرت الذي انتخب بابا لكنيسة روما 999 ميلادية<sup>(4)</sup> ومنهم من جعل الحروب الصليبية بداية الاستشراق ويرى بعضهم إن البدايات كانت في الحروب التي نشبت في الاندلس بعد استيلاء الفونسو السادس على طليطلة عام 1056 م / 448هـ ومنهم من ذهب إلى إن البدايات الأولى للاستشراق تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي حيث كانت أول ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينية وذلك سنة 538 هـ / 1043م ، وعد آخرون حاجة الغرب للرد على الإسلام ولمعرفة أسباب قوته خاصة بعد سقوط القسطنطينية عام 1453 ، وهكذا استمرت جهود المستشرقين تنصب لدراسة الإسلام وترجمة القرآن الكريم وكذلك الكتب الأدبية والعلمية حتى جاء القرن الثاني عشر وما بعده حيث تم للغرب استعمار العالم الإسلامي وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر عقد مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1873 ثم توالى مؤتمرات المستشرقين بالانعقاد<sup>(5)</sup> ويمكننا الشروع بتحديد علاقة الاستشراق بالخطاب وتمفصلات السلطة والمعرفة وذلك من خلال تقسيم الخطاب الاستشراقي قبل نابليون . وفي عصر نابليون وبعد نابليون .

#### الخطاب الاستشراقي قبل نابليون

الخطاب قبل نابليون والذي يمكن إن نسميه الاستشراق الشعبي إذ كان الاستشراق في ضده العصور متشعب الفروع والأهداف متمثلاً بالفردية التي كانت الطابع العام لهذه المراحل ومنطلقة من تفسير ذاتي لا يتكأ على نظريات علمية لدراسة الشرق والذي يمكن إن نسميه مرحلة التعرف على الآخر لتحقيق المركزية الغربية أو شرقنة الشرق كما قال ادورد سعيد<sup>(6)</sup> ، لذلك كانت ملامح تشكيلات المعرفة مرتبطة بصور اجتماعية وافدة على شكل تجسيدات تبحث عن أشكال الحقيقة والفهم مرتكزة في تحليلات نظام الممارسة بوصفها موطن ائتلاف القول والفعل . وهكذا فإن أفراد الخطاب أو افرازه وابراره سيكون السمة العامة لذلك العصر إذ تنغمت تمثيلات المعرفة ما بين الأفراد (المستشرقين ) منذ عصر النهضة مثل ايربنيس و غليوم برستل مختصين في لغات الاقاليم التوراتية إذ كانوا باحثين في التوراة أو دارسين للغات السامية أو مختصين بالإسلام أو مختصين بالصين ولم يكن مد أسيا أو دراسة الشرق قد فتح جامعياً وان كان يوصف الاستشراق بأنه فرع من فروع الدراسات الجامعية إلى إن

(1) ينظر المصدر نفسه ، ص 181 - 182 .

(2) أدب الرحلات ، ص 32 - 33 .

(3) الاستشراق ، ادوارد سعيد ، مصدر سابق ، ص 80 .

(4) ينظر المستشرقون ، نجيب العقيلي ، ص ??? .

(5) ينظر الاستشراق والتاريخ الإسلامي ، فاروق عمر فوزي ، ص 30 - 31 .

(6) الاستشراق ، ادوارد سعيد ، ص 80 .

استطاع انكيتيل – دوبرون وسير وليم جونز في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، ومع منتصف القرن التاسع عشر أصبح الاستشراق مكتنزاً علماً من الاتساع بقدر ما يستطيع المرء إن يتخيل لهذا يمكن وصف الاستشراق في هذه المرحلة بأنه موسوعياً والتي تدل عليه المؤشرات بالتحويلات التي حصلت للاستشراق منذ مجمع فيينا إلى حفل شمولي<sup>(1)</sup> إذ إن أكثر المستشرقين الذين درسوا الشرق في تلك الحقبة كانوا مدفوعين بحب فضولي أكثر مما يدفعهم العلم وبدافع المغامرة والبحث عن اللغات والارتباط ما بين اللغات الأوربية واللغات السامية ولعلنا سنحاول إن نبين اثر السلطة والمعرفة ودورها في تكوين الخطاب الاستشراقي في تلك الفترة من خلال تسليطنا الضوء على بعض المستشرقين محاولين استنطاق نصوصهم لذلك كانت السامية والساميون في كتابات رينان تبلورت بصورة انحيازية للغرب إذ زعم رينان إن الساميين كما ظهر في لغاتهم وتاريخهم وآثارهم (وحدانيون) أي انفراديون متعجلون انهم ينتجوا تراثاً اسطوريا ( لعل يقصد لم ينتجوا ملامح تاريخية كما عند اليونان) أو فناً أو تجارة أو حضارة وهم بشكل عام يمثلون تركيبة دنوبية للطبيعة الإنسانية فالرجل السامي بالقياس إلى الرجل الأري كرسم المخطط في الصورة الزيتية حسب قوله وهو يرى إن اللغة العربية جامدة فليس لها طفولة ولا شيخوخة لأنها وجدت وبعثت على حالها لم تتغير ومن مزاعمه أيضا عن اللغات الشرقية أنها لا عضوية ومتعطلة عن النمو وعاجزة على إن تجدد حيويتها وقوتها وهو ينسب الإبداع والخيال الواسع والأصالة في الحضارة للشعوب الهند أوربية وينفي ذلك عن الشعوب السامية فضلا عن رأي رينان في كتابه عن ابن رشد والرشدية إن الفلسفة العربية فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية فأنكر ما للفلاسفة العرب كالكندي وابن طفيل وابن رشد وغيرهم من إنتاج الأصيل<sup>(2)</sup> . وهنا وفي محاولة منا لاستنطاق أو تفكيك مقولات لابنان نجد ملامح العنصرية والمركزية والإقصاء والتهميش للأخر من خلال الخطاب الذي حاول إن يدعّمه رينان بأراء ملفقة من خلال تجربة متأخرة مرتبطة بالانسنة المعرفية والمتمظهرة بشكل الإكراه والإقصاء في الممارسة وذلك من خلال توليفه لبعض العلوم ، والمعارف في تكثيف حضور السلطة وتجذيرها في محاولة عزل الساميين ووضعهم في دائرة احادية تضعهم مع قطيعة مع التاريخ والحضارة محولهم إلى شعوب ليست حضارية وفاقدة للعلمية والحضارة من خلال مسخ اللغة العربية والفكر العربي لغرض احتوائهم وكأنه يحاول إن يعرف الغربي المتطور من خلال العربي الجاهل كأنه يتسامى مع مقولات فوكو وهابرماس محاولا وضع العقل العربي في خانة الجنون أو اللاعقل او الحمقى أو المتخلف كما يقول هابرماس (ليصبح تاريخنا للمعقولة بحيث يتم النظر إلى الجنون كانعكاس لتكون العقل فالجنون هو تجربة من تجاري الجسد التي يضبط فيها اللوغوس الغربي ذاته بطريقة مراوغة في مواجهة المختلف)<sup>(3)</sup> ، أما في كتاب (عبر الصحراء إلى بغداد) للويزا جيب فأنها تتحدث عن رحلتها عبر الصحراء إلى بغداد وانطباعاتها وتأملاتها مشكلة منها معرفة بالأخر من خلال ذكرها للقطار أو الوحش بالمنظور الشرقي له محاولة إن تزدرى من الصحراء وسكانها وبحيث إن الشرق لا يعرف المعطيات والمؤثرات الملموسة للثورة الصناعية لذلك كان ابرز حدث صناعي يدخل الشرق هو القطار أو سكك حديد بغداد فمثلا قوة الغرب ازاد شرق واهن وان الغرب يعرض صننا على انه القوة الوحيدة القادرة على تغيير الشرق الساكن وان الإنسان الشرقي بعيدا عن الزمان لان الزمان لا يحتوي على قيمة حاسمة في آلية اجتماعية صناعية انه خالي من المعنى وان الغرب مقسماً لزمانه ومستغلاً له .

وتقدم الكاتبة من خلال حدث مر عليها خلال رحلتها بأن الشرق عالم مبهم وجاهل ويمكن للإنسان الأوربي إن يمارس به حياة مختلفة شعوراً بتفوق هائل ففيه إن يحيى المرء حياة ملكية ببساطة انه عالم يجهل الكثير عن الغرب العالم المتحدث لهذا فإنه يستثير حب المغامرة واللهو والمعاناة في القارئ الغربي يمكن للإنسان الغربي إذا ما ذهب إلى الشرق تمرير أي شيء وتأتي دراية الإدارة الضعيفة عاملاً مساعداً يجعلها (الشرق) فريسة سهلة للاستغلال<sup>(4)</sup> إن تمثيلاً في السلطة والمعرفة في هذا الخطاب من خلال رحلة أو ممارسة واقعية مقارنة ما بين الشرق والغرب جاعلة طرف المعادلة للأقوى وهو المعطى الغربي إن المراقبة للأحداث والمشاهد في الرحلة

(1) الاستشراق ، ادوارد سعيد ، ص 80 – 82 .

(2) المستشرق الفرنسي ارنست رينان ونظرية إلى اللغة والفلسفة ، احمد حسن الرحيم ، مجلة الاستشراق ، ع2 ، 1987 ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ن ص 40- 42 .

(3) التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو ، ص 153 .

(4) الزمني واللازمي في الاستشراق تطبيقات في كتاب عبر الصحراء إلى بغداد ، تأليف لويزا جيب ، محمد عبد الحسين الدعي ، مجلة الاستشراق ، ع2 1987 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ص 140 – 148 .



ذاكرة لعناصر الضعف والوهن في الشرق المستخدمة آلية إكراه وإقصاء للعناصر الايجابية معارضة نصوصاً بنصوص من منظور إقصائي لا يتخذ طابع عنفي في وصم الآخر بالجهل والتخلف أو مؤسسات ولكن لكي الأمر جلياً انه كشف عن حقيقة توجه وتحكم خطابها لذلك كان مصدر مقاربتها ما بين الشرق والغرب واهن فانقلبت الحقيقة من الفعل المعرفي إلى الفعل الاقصائي السلطوي مشكلة قوة تمارس ضغط شديد على الأشكال الخطابية في قيمة المعقولة العلمية مستخدمة أسلوب التعليق في انتقاء داخل الخطابات التي تكون ثقافة الشرق جاعلة من الخطابات الظرفية أو المواقف العابرة أو اللحظية أي خطابات ونصوص يعاد قولها وإنتاجها مشكلة خطابات جديدة من خلال قابلية الحدث الأصلي لاتخاذ صيغة راهنة مكونة فجوات التي تفسح المجال لتعددية المعنى وخفائه مما يترك إمكانية مفتوحة للكلام فالجديد ليس قائماً فيما قبل بل في حدث عودته في تنسيق نصوص تتناغم أو تتناسق مع الخطاب الغربي ، ويتضح لنا بأن المستشرقين عندما جاءوا ليعاينوا الشرق المتخيل في عقليتهم من خلال إسقاطات ذاتية المستشرق في الخطاب الذي حاول إن ينقله إلى الغرب متجانساً لخطاب المستشرق مع خطاب الغرب من خلال المخيلة الغربية المتكونة للشرق كأنه كما يقول ادوارد سعيد تحول الشرق من حقل جغرافيا إلى حقل ذو دلالات في العقل الغربي (1) .

#### - الخطاب الاستشراقي في عصر نابليون

لقد مرت العلاقات الثقافية والمادية والفكرية بين أوروبا والشرق بمراحل لا تحصى ، فقد كان الغرب بشكل عام هو الذي زحف على الشرق بعد إن تكونت عبر المراحل السابقة معرفة بالشرق مكونة مستشرقين محترفين مثل جوينس مقتربين من الواقع والعلمية من خلال تنامي المعرفة الفعلية للشرق من خلال الدراسات المتفقة للنصوص الكلاسيكية القديمة للمستشرقين القدامى منتقلة إلى تطبيق هذه النصوص على الشرق الحديث من خلال الجمعيات التي تأسست والفروع العلمية في الجامعات التي درست الشرق ، كالجمعية الآسيوية الملكية وغيرها الخ . كانت لجميع المشاريع الاستشراقية قبل نابليون خصيصة مميزة هي انه لم يكن ثمة إلا قليل مما يمكن القيام به من أجل نجاح مشروع نابليون فقد تعلم انكيثل وجوينز ما تعلماه حول الشرق ليقدموه استشاراتهم المعرفية لنابليون وإن كان هدف نابليون أخذ مصر بأكملها وإنما ضم الشرق ومستعمرات جديدة ونظراً للظروف العسكرية والسياسية والاقتصادية التي دفعت نابليون تجاه الشرق فأن نابليون منذ صباه قد انجذب للشرق إذ تحتوي مخطوطات شبابه مثلاً تلخيصه لكتاب ماريني تاريخ العرب مع معرفة النصية من خلال ما قرأ وعبر ما كتب المثقفين لذلك صارت الخطط التي وضعها لمصر الأولى في سلسلة طويلة من المواجهات الأوروبية مع الشرق سخرت فيها معرفة المستشرق الخابرة لأغراض استعمارية بصورة مباشرة أدرج نابليون عدد كبير من المنسشرين والمختصين في حملته على مصر مؤسساً ارشيفا أو سجلاً للمحفوظات لحملته في صور دراسات حول كل الموضوعات المحتملة أو الممكنة التي يقوم بها اعضاء مصر الذي انشأه فقد اعتمد نابليون على دراسات كونت دوفوليني وهو رحالة فرنسي نشر كتابه رحلة إلى مصر وسوريا في مجلدين عام 1787 فلقد فهم نابليون فوليني فهماً حرفياً لأرائه إذ يقول نابليون إن فوليني رأى إن ثمة ثلاثة حواجز في وجه السيطرة الفرنسية في الشرق وإن أية قوة فرنسية لا بد إن تحارب ثلاثة حروب الأول ضد انكلترا والثاني ضد الباب العالي العثماني والثالثة وهي أكثر صعوبة ضد المسلمين، فلقد شكل عمل فوليني دليلاً كتابياً لتخفيف حدة الصدمة الإنسانية التي ربما شعر بها الأوروبيين لحظة التجربة المباشرة للشرق ومنذ الظهور الأول للجيش الفرنسي على الأفق المصري بذل نابليون ما في وسعه جهداً لإقناع المسلمين ( بأننا نحن المسلمون الحقيقيون / ويعبارة نابليون في إعلانه هذا لسكان الإسكندرية متسلحاً بفريقاً من المستشرقين جالسين في سفينة القيادة المسمى الشرق لذا اعتمد نابليون على الباحثين والمستشرقين ليدير اتصالاته مع السكان المحليين مبرهننا نابليون للمسلمين بأن حروبه كانت من أجل المسلمين . وكان قادة الجنود يحثون جنودهم على تذكر الحساسيات الإسلامية (2) ، وهذا الأسلوب لنابليون يختلف عن أسلوب المستعمرين والمعرفة لجميع المعلومات الواسعة التي تساعده في السيطرة على الشعوب لا سيما الشعب المصري وإذا أردنا إن نجري مقارنة بين تمفصلات السلطة والمعرفة في خطاب نابليون نجده حد استخدم إستراتيجية القلب محاولاً تطويق الحدث الخطابي من خلال الكشف عن أسس المعرفة وتساميها مع حضور

(1) ينظر الاستشراق ، ادوارد سعيد ، ص 80 .

(2) ينظر الاستشراق ، ص 108 .

السلطة في الممارسة الخطابية أي الأنظمة المعرفية من حيث تشكلها وتتابعها محولاً إرادة السلطة إلى معرفة بالأخر وناشئاً أسس لتعامل جديد من خلال إقصاء الخطابات المتعالية للغربي ضد الشرقي منتقياً خطابات تتناغم وتتجانس مع الشعب المصري في حيلة تبادل معرفي وسلطوي محددات خطاباته الاستعمارية من خلال المعرفة التي استقصاها من المستشرقين ، أما أسلوب المستعمرين الذين حولوا المعرفة إلى إرادة قوة من خلال وثيقة أعدها الأسبان عام 1513 بالاسبانية لنقرأ على الهنود الحمر (سنأخذكم ونأخذ زوجاتكم وأطفالكم عبيداً ، ثم نبيعهم وننزل بكم كل الأذى والضرر الذي نستطيعه ، أما التابعون الذين لا يطيعون الخ) (1) . إن تحليلنا لمنظومة الخطاب الذي قرأه الأسبان على الهنود الحمر يحمل دلالات الاستعلاء والإذلال والهيمنة والتحقير وسيطرة القوة الغاشمة في تعاملها مع الشعوب ، إن المقاربة ما بين مشروع نابليون أو الاستعمار الفرنسي النابليوني والاسباني يوضح إن مشروع نابليون هو مشروع متجانس ومتكامل مذ فتح أفق جديدة للاستشراق ليتحول إلى جهاز رسمي أو مؤسساتي كان نافعاً للسياسيين ولا سيما في تأسيس الجمعيات التي تجمع العلماء المعنيين بآسيا والشرق الأدنى والأقصى ومجلات تعنى بالشرق ولا سيما المجلة الآسيوية لا سيما بعد احتلال الجزائر عام 1830 توسعت دائرة الاستشراق وتضاعف الأمر بعد احتلال تونس ومرآكش مبدأ الاهتمام بتعليم اللغة العربية والشرقية حتى تم إعداد مترجمين باللغات الدارجة المكتوبة منها والمحلية وقد كان دبلوم المدرسة ضروريا حين يتم التقديم أو التقدم إلى المسابقات التي يتم بها اختيار أمناء سر السفارات في الشرق الأدنى وهي وظيفة خاصة بوزارة الخارجية يرسل أصحابها إلى المواقع الدبلوماسية في تلك البلاد (2).

#### - الخطاب الاستشراقي بعد نابليون

بعد عصر نابليون وانتهاء الحملة وبعد اعتماد نابليون على المستشرقين وبعد إن تطبع الخطاب الاستشراقي بالملاحم السياسية وأصبح أكثر رسمية وتحول من الموسوعية والشمولية في طرح المواضيع وتعددت الدراسات في ذلك العصر ، وفي العصور اللاحقة بعد نابليون وبعد إن أنجبت حملة نابليون سلسلة كاملة من ((المولدات النصية ، من كتاب شاتوبريان المرحلة إلى كتاب لامارتين رحلة في الشرق ، وكتاب فلوبيير سلامبو ، وضمن الخط نفسه في التراث ، كتاب لين مسالك المصريين المحدثين وعاداتهم ، وكتاب ريتشارد بيرتن مرد شخصي لرحلة حج إلى المدينة ومكة ، وما يربط هذه المؤلفات ليس خلفيتها الكامنة في الخرافة والتجربة الشرقيين وحسب ، بل هو أيضا اعتمادها المتفقة على الشرق بوصفه رحما منه انبثقت . وإذا كانت هذه المخلوقات قد أنجبت في النهاية ، بما في ذلك من مفارقة ضرورية ، عن صورة زائفة مؤسسية إلى درجة عالية ، وتقليدات محكمة النسخ ، للصورة التي يمكن إن يتصور الشرق الفعلي الحي عليها ، فإن ذلك لا ينتقص إطلاقاً من قوة التصور التخيلي لهذه المؤلفات ، أو من قوة المعرفة الأوروبية المتقنة للشرق وسيادتها عليه ، هذه السيادة التي كان نمطها الأولي كأجلبيوسترو المشخص الأوربي العظيم للشرق ، ونابليون ، أول فاتح حديث له (3) . ولم يكن العمل الفني والنصي الوحيد لعمل نابليون وإنما كانت هناك إضافات وقد انتقلت النصوص الاستشراقية بعد نابليون من مجرد الإدراك النصي والصياغة والتحديد النصيين إلى وضع هذه الأشياء موضع التنفيذ في الشرق فقد تحول إلى حدث فعلي وخلال السنوات اللاحقة حقق الاستشراق انجازات عظيمة فخلال عصره العظيم في القرن التاسع عشر أنتج باحثين بمعنى الكلمة وزاد عدد اللغات التي تدرس في الغرب وكمية المخطوطات المحققة والمترجمة والمعلق عليها وهنا ينبغي إن نكون في منتهى الوضوح فأن الاستشراق قد طغى على الشرق وأثقله وافترض في هذا العصر الغرب شرقاً واستشراقاً لا يتغير ، وإطلاقاً عن معطيات الغرب وتفكيرهم لذلك اندمجت العلاقة بين السياسة والشرق في علاقته وثيقة محتاتية مما جعل من كرومر وبلفور من حيث هما مراقبان للشرق واداريان له إذ إن السياسة والسلطة قد تشابكت مع المعرفة والاستشراق إذ في يوم الثالث عشر من حزيران عام 1910 القى بلفور محاضرة على مجلس العموم البريطاني حول (المشكلات التي عينا إن نعالجها في مصر) .

(1) الاستشراق ، ص108 .

(2) ينظر ، الاستشراق الفرنسي ، أصوله ، تطوره ، آفاقه ، المستشرق روبرت منتران ، ترجمة د. يوسف حبي ، مجلة الاستشراق ، العدد 2 ، 1987 ، ص23 ، 35 .

(3) ينظر الاستشراق ، ص113 .

ومن خلال محاضراته والتي قاطعها احد النواب متهماً بلفور بأنه يتكلم عن شرقيين ليس لهم تلك الأهمية للمشكلات التي يطرحها بلفور في محاضراته فأعاد بلفور نفسه طرح السؤال ( ... أي حق لديك لتستشعر هذا الحس الفوقية بزاء شعوب تختار إن تسميها شرقية) وان إطلاق كلمة شرقي في المحاضرة له دلالة توحى بأن هناك معرفة مسبقة من السياسيين بالشرق تتمفصل فيهم المعرفة والقوة ودليل إن بلفور مكملأ محاضراته معتزماً وطالبا من رجال عند معالجتهم لا سيما مصر مقراً بأنه يملك معرفة بتاريخ مصر وحضارتها التي هي أقدم من حضارتهم<sup>(1)</sup>.

إن الدور السياسي وتحويله إلى من لديه معرفة بالشعوب المستعمرة ما هي إلا معطى يمثل حقيقة المعرفة الخابرة بالآخر الذي يحتاج إلى إن يدير شؤونه المستعمر لأنه اعرف الناس به ، لذلك يقول كارل ماركس عن الشعوب الشرقية ( أنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم ، ينبغي إن يمثلوا )<sup>(2)</sup> . إن التطورات اللاحقة التي أدت إلى إن يكون هناك ارتباط بين معرفة السياسي في شؤون الدولة التي يحتلها في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، مما أدى إلى إن يتحول الاستشراق من الشمولية إلى التخصص وأصبح هناك عدد من المستشرقين الكبار ولاسيما في القرن العشرين إذ أصبحت اللغة العربية في عام 1920 موضوع تعليم عالي في جامعات باريس وليون والجزائر وتأسست بعد الحرب العالمية الثانية عدة مدارس لتدريس العربية واللغات الشرقية الأخرى وشمل التدريس موضوعات اللغة والأدب والحضارة والتاريخ والفلسفة وبدأت البحوث تكون أكثر رصانة وأخذت تكتسب أبعاد جديدة مستخدمة أساليب علمية مثل العلوم الإنسانية والانثروبولوجيا والاجتماع والنفس في تحليل الشعوب المستعمرة والمستعمر<sup>(3)</sup> . ولعل أهم الدراسات التي درست نفسية المستعمر والمستعمر ولاسيما في كتابات ((ماري لويز برات)) و ((مايا تري سبيفاك)) و ((روبرت يونغ)) وهو في بهابا في استخدام نظريات التحليل النفسي<sup>(4)</sup> . اتو كدراسات علم الاجتماع والانثروبولوجيا لشتراوس وجيمس فريزر التي اتكأت على المناهج العلمية للوصول إلى حقائق الاقوام الأخرى ، وان كان هناك مازق لبعض الكتاب الانثروبولوجيين الذي لم يفهم الإسلام بأنهم مخالطة تاريخية في قوله ( ما كان إليه مصير الغرب اليوم لو نجحت محاولة التوحيد بين العالم المتوسطي والهند .... ، وترسخت ؟ فهل كان للمسيحية والإسلام وجود ؟ وما كان يؤرقني خاصة هو حضور الإسلام)<sup>(5)</sup> . وقد تطور الاستشراق ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية وانتقلت الدراسات الاستشراقية إلى أسماء ومسميات جديدة مرتبطة بوزارة الخارجية الأمريكية ومؤسساتها وفتحت مراكز دراسات متخصصة كمركز دراسات الشرق الأوسط ودراسات لكل منطقة أو دولة وتحول الاستشراق إلى استشراق امبريالي يخدم طموحات وأهداف أمريكية لذلك ارتبط (الاستشراق الامبريالي)<sup>(6)</sup> بالأمركة وقد نظرت الشعوب الامبريالية والتي توفرت لها التربة الخصبة إذ إن الامبريالية ( هي طريقة التفكير والعمل التي اتخذها شعب يزعم لنفسه حق إلحاق الشعوب الأخرى بتبعيته ... أو إن الامبريالية دولة تسعى إلى اختصاص دولة أخرى أو الامتداد على أقاليم غير منظمة)<sup>(7)</sup>.

ومن الخطأ القول بأن الامبريالية الحديثة (العصر الأمريكي) كان يمكن إن تظهر على الوجود من دون الاستعمار فأن هذا لا يعني بحال من الأحوال نهاية الامبريالية وان الاستعمار والامبريالية لا يعني التطبيق المباشر للقوة العسكرية والسياسية ولكن الاستعمار الجديد قد أسسه الاستعمار التقليدي ذلك عن طريق بناء مؤسسات اجتماعية واقتصادية للبلدان التابعة من اجل تلبية حاجات المركز إذ إن المنظومات الاقتصادية والاجتماعية للدول التابعة أصبحت تابعة لدولة الام المستعمرة لذلك يمكن إن نطلق عليها الامبريالية بلا مستعمرات جغرافية ولكن امبرياليات تملك خارطات الفكر والسياسة للدول التابعة<sup>(8)</sup> . لذلك تغلغت المعرفة ولاسيما المعرفة الاستشراقية في متاهات السلطة لا سيما السياسية ودورها في تغيير ثقافة الدول النامية ، أو الفقيرة لغرض تصدير ثقافة المهيمين

(1) ينظر الاستشراق ، ص 63 - 120 .

(2) ينظر المصدر نفسه ، ص 35 .

(3) ينظر الاستشراق الفرنسي ، أصوله ، تطوره ، أفاقه ، مصدر سابق ، ص 35 .

(4) ينظر ، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ، حنفاوي بعلي ، ص 90- 100 .

(5) الفكر البري ، كلود ليفي شتراوس ، ترجمة نظير حاصد ، ص 8 .

(6) ينظر الاستشراق ، ص 213 ، 325 .

(7) تشريح جثة الاستعمار ، غي دوبوشير ، ترجمة ادوارد الخراط ، ص 57 .

(8) الامبريالية في عصر الاستعمار حتى اليوم ، هاري ماجدوف ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ص 143- 149 .

والذي يمكن إن نسميه بأنه عصر الامركة الذي قضى على الثقافات وكون ثقافة الدولة القوية ذات السيادة محققة - نهاية التاريخ كما جاء في كتابه فوعي ياما والذي عمل مستشاراً في وزارة الخارجية الأمريكية ليعكس انطباعاً بأن الثقافة الأمريكية أو الرأسمالية هي الثقافة التي لا بد إن يفتدي بها العالم لاسيما الشرق ليصبح ديمقراطياً<sup>(1)</sup> وهكذا تحولت الثقافة والمعرفة إلى سلطة مهيمنة ادخلت العالم في فوضى لتنتهي بعدم معرفة الآخر من جانب الامريكان الذين دعمتهم مراكز الدراسات بمعلومات مغالطة عن الإسلام والتي سيطر عليها الصهاينة ولا سيما في القرار السياسي لتنتهي بسقوط البرجين وخروج خطاب الاعلاميين الأمريكيين ولاسيما السياسيين منهم (لماذا استهدفونا) ليطفوا مصطلح اطلقه بوش ( لقد استهدفت الديمقراطية في ذاتها) ليطفح لنا مصطلح جديد هو الحرب على الارهاب (الحرب على الإسلام) لتنتهي بسقوط دولتين اسلاميتين متمثلتين بأفغانستان والعراق ليقتل ويدمر الشعوب فيهما خلال سنوات الاحتلال ليخرج لنا قول الحاكم المدني (المنسوب السامي الأمريكي) في العراق بول بريمر بمقولة تعيدنا إلى العصور الحجرية عائدة مسالة معرفة الآخر إلى السطح قائلاً ( كان هيوم ... واحداً من ابرز المتعربين في وزارة الخارجية وأفضى قسماً كبيراً من الخدمة في منطقة الشرق الأوسط ، وهو يعرف بغداد حق المعرفة ، فيما انا لا اعرفها)<sup>(2)</sup>.

واستنتاجاً لهذا النص الأخير والذي يمثل رأي سياسي أو سلطة ومعرفة التي لم تتحقق عندما جاء ليحكم بلد وقع تحت الاحتلال الأمريكي مدمراً لك شيء وكأنه لم يعرف بغداد غير صورتها المتخيلة في سفر الرؤيا أو العهد القديم بأنها مدينة الملعونة أو النجسة أو مدينة الرشيد وشهرزاد والاربعة والاربعين حرامي التي أصبحت ممارسة فعلية من قبل المحتل وأعوانه .

وختاماً يمكننا القول بأن تفضلات السلطة والمعرفة كانت تابعة لحقب تاريخية أو عصور تحدها ممارساتها أو معطياتها وفقاً لرؤية الغالب للمغلوب أو المركز أو الاطراف لتنتقل تشابكات السلطة والمعرفة في ملامح خفية متنقلة من بداياتها ، بمعرفة الآخر (الشرق) لتحقيق الذات المالك لمفاتيح سلطة معرفة الآخر لتتحول إلى معرفة متجسدة فيها السلطة بصورة واضحة من خلال الاستشراق ودوره في الممارسة الاستعمارية في عصر نابليون لتلتقي اهداف المعرفة الاستشراقية واهداف السياسيين في بوتقة واحدة هي خدمة سلطة الاستعمار في ترويضه لشعوب المنطقة ، أما الاستشراق بعد عصر نابليون الذي التقت فيه العلمية والمنهجية والدقة مع السياسة لقلب الحقائق في خدمة المستعمر منتهية إلى عصر الاستشراق الامبريالي كما سماه ادوارد سعيد بعد الحرب العالمية الثانية متجذراً في السياسية الأمريكية أو عصر الامركة ممتزجة المعرفة مع الاقتصاد والسياسة والثقافة بشكل كثيف لا يمكن من خلال فرز المعرفة الاستشراقية (الدراسات أو مركز الدراسات للشرق بأنواعها) عن الاهداف السياسية والاقتصادية لتمتزج ربحة البترول مع الديمقراطية مع عصر نهاية الثقافات والتي أراها نهاية الاستشراق لاننا في عصر ثقافة أمريكية واحدة حاولت مسح الشرقي ولاسيما العربي الإسلامي خاصة للأسف الشديد وان كان هناك بقعة أمل وضوء يتمسك به أي مسلم مخلص لدينه ووطنه في بؤر المقاومة في فلسطين ولبنان والعراق وافغانستان والصومال للقضاء على ثقافة الهيمنة .

## المصادر والمراجع

- 1- أدب الرحلات ، حسين محمد فهميم ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1989 .
- 2- إرادة المعرفة ، تاريخ الجنانية ، ميشيل فوكو ، ترجمة مطاع الصفدي وجورج ابي صالح ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، لبنان ، 1990 .
- 3- الاستشراق ، المعرفة ، السلطة ، الانشاء ، ادوارد وسعيد ، ترجمة كمال ابو ديب مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1989 .
- 4- الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى) دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية ووجهة النظر الغربية ، فاروق عمر فوزي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1998 .

(1) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ، ص161 .

(2) عام قضيته في العراق النضال لبناء غد مرجو ، بول بريمر و مالكولم ماك - كوك ، ترجمة عمر الأيوبي ، ص10 .

- 5- الامبريالية في عصر الاستعمار حتى اليوم ، هاري ماجدوف ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1981 .
- 6- التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو ، السيد ولد أباه ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2004 .
- 7- تشريح جثة الاستعمار ، غي دوبوشير ، ترجمة ادوارد الخراط ، دار الأدب ، بيروت ، ط1 ، 1968 .
- 8- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، علي الوردي ، بغداد ، العراق .
- 9- الغارة على العالم الإسلامي ، افتراءات المبشرين ، تأليف لوشاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب .
- 10 - الفكر البري ، كلود ليفي شتراوس ، ترجمة نظير جاهل ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1984 .
- 11- عام قضيته في العراق النضال لبناء غد مرجو ، بول بريمر ، ترجمة عمر الأيوبي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2006 .
- 12- عدو المسيح ، فريدريك ننتشه ، ترجمة جورج ميخائيل ديب ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط1 ، 2004 .
- 13- فلسفة هيكل ، ولترسينس ، ترجمة أمام عبد الفتاح أمام ، تقديم زكي نجيب محمود ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1980 .
- 14- قصة الحضارة ، ول ديورانت .
- 15- كتاب السياسة ضمن شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، دار المشرق ، لبنان ، 1986 .
- 16- كفاحي ، أدولف هتلر ، ترجمة أمل رواش ، مكتبة ابن سينا ، ط1 ، القاهرة ، 2005 .
- 17- مجلة الاستشراق ، المستشرق الفرنسي ارنست رينان ونظرتة إلى اللغة والفلسفة احمد حسن الرحيم ، الزمني واللازمي في الاستشراق تطبيقات في كتاب عبر الصحراء إلى بغداد ، تأليف لويزا جب ، ترجمة محمد عبد الحسين الدعي والاستشراق الفرنسي أصوله تطوره ، أفاقه ، المستشرق روبرت منتران ، ترجمة يوسف حبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ، ط2 ، 1987 .
- 18- محاضرات في فلسفة التاريخ ، هيكل ، ترجمة أمام عبد الفتاح أمام ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1974 .
- 19- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ، المنطلقات - المرجعيات - المنهجيات ، حفاوي بعلي ، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2007 .
- 20- المستشرقون ، نجيب العقيقي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1981 م .
- 21- المسيحية والإسلام والاستشراق ، محمد فاروق الزين ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، 2003 .
- 22- المطابقة والاختلاف ، عبد الله إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004 .
- 23- المعرفة و السلطة ، مدخل لقراءة فوكو ، جيل دلوز ، ترجمة سالم ليفون ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، دار البيضاء - المغرب ، ط1 ، 1987 .
- 24- العجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، عبد المنعم الحنفي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط3 ، 2000 .